## ◆ هل من جديد فى الأدب الأندلسى ؟

بدأت الدراسات الأدبية تتزايد فى حقل الأدب الأندلسى ، وهى تلقى كثيرًا من الضوء على حقائقه الغامضة ، فكل باحث جاد يخطو خطوة لاحقة فى الطريق ، ويقدم من الآراء ما يكون موضع التحليل والتمحيص ، وذلك كسب كبير !

وقد رأينا من الكُتَّاب من ينادون بالتريث فى دراسة الأدب الأندلسى ، وحجتهم أن أكثر كنوزه لا تزال مطمورة فى خفايا النسيان ، وما تقدمه المطبعة بين الفينة والفينة من نفائس المخطوطات لا يساوى شيئًا إذا قيس بما تختزنه المكتبات العالمية فى الشرق والغرب ، وقد تبدو لهذا الرأى وجاهة سريعة عند من لا يتعمقون الأشياء ، أما الذين أُوتوا نصيبًا من الدقة الحصيفة فيعرفون أن الكلمة الأخيرة فى أى أدب من الآداب لم تُقَلْ بعد ، وأن كثيرًا من الحقائق المتأصلة على مرّ الأحقاب تتعرض لانهيار مفاجئ حين يعمد لها من يتسلح بالمثابرة والنفاذ ، فيرى بها غير ما يرى السابقون من ذوى التفكير ! وإذا كان ذلك شيئًا طبيعيًّا فى دنيا الأدب والعلم ، فلماذا نجفل عن دراسة الأدب الأندلسى ؟ وإلى أى مدى ننتظر ؟ وما الذى يمنع أن نقول كلمتنا الآن ، فإذا جدَّ جديد تتمخض عنه المخطوطات المطمورة ، فإنه إذ ذاك لا يصطدم بمنطق الأشياء ، بل يكون اطرادًا للسير على منهج معلوم ، ولعمرى لو أفلح هؤلاء فى صد الباحثين عن قضايا الأدب الأندلسى انتظارًا لما سيجىء لَتَطَاول الزمن بدون أن نظفر بما ينفع الغليل فى منطق أولئك ، وهكذا تضيع الحقائق بين المطال والتسويف ؟

ومنذ أصدر الأستاذ الدكتور أحمد ضيف كتابه عن بلاغة العرب فى الأندلس ، والآراء تتفق وتفترق حول هذا الأدب الحبيب ، فلكل باحث رأيه الخاص فى أصالة الأدب الأندلسى أو تقليده ، ونحن نرحب بهذا الاختلاف ، ونراه مما يزيد جلاء الحقائق الأدبية وتوضيحها ، فهو يفسح مجال الموازنة والترجيح ، ويقدم من الآراء المتقابلة ما يساعد على الوصول إلى النتائج المُرضية ، وإذا كان من المفيد أن نختلف ، فإن من الضار هنا أن نتفق على رأى واحد لا نتعداه ، إذ إن أحكام الآداب جميعها ترجع فى بعض تقديراتها إلى الذوق الفنى ، وليست كقضايا العلم التجريبى الذى ينفرد فيها العقل المجرد بميزانه الدقيق ، وإذا كان للذوق الشخصى نصيبه فى الحكم الأدبى فلابد أن تختلف الأذواق ، ومن ورائها اختلاف القضايا والأحكام .

ونكلف أنفسنا كثيرًا من الشطط إذ نستعرض كل ما قيل بهذا الصدد من الآراء المعاصرة منذ أصدر الأستاذ الرائد أحمد ضيف كتابه عن الأدب الأندلسى ، ولكننا نختار بعض النابهين ممن يقفون وقفات متعارضة فى هذا المجال ، لنسمع ما يقولون كما دَوَّنُوه ، فإذا كان لنا من تعليق على ما قيل ، فبعد أن يقف القارئ على وجهات النظر واضحة مستوفاة ، وسنقف موقف المفسر فقط ، لتتضح الأمور على وجهها الصحيح .

لنا أن نختار الدكتور أحمد أمين على رأس القائلين بتقليد الأدب الأندلسى وأتباعه ، فقد أكثر قديمًا من المناداة بهذا الرأى فى مقالاته الصحفية وبحوثه العلمية ، حتى إذا تعرض للفكر الأندلسى أخيرًا بالجزء الثالث من ظُهر الإسلام وجد المناسبة الواضحة لترديد هذا الرأى الذائع عنه فى أكثر من مناسبة ، فانبرى يُبدئ ويُعيد فى تسجيل هذه المحاكاة الضيقة ، فهو مثلاً يقول[1] :

«.... ولذلك لو أغمضنا أعيننا ، وجهلنا قائل القصيدة أهو شرقى أم أندلسى ، لم نكد نحكم حكمًا صحيحًا جازمًا على الشاعر ، أغربى هو أم شرقى ، ولذلك كثيرًا ما تُنسب بعض الأبيات إلى أندلسى ، وينسبها بعضهم بعينها إلى مشرقى لعدم التمييز

(١) ظهر الإسلام ج ٣ ص ١٠٤ ط ٣ .

الواضح حتى عند الخبراء ، وربما كان مصداق ذلك ما حُكى أن الشاعر الأندلسى الملقب بالغزال وجد فى بغداد جماعة من المثقفين ، فأنشدهم شعرًا لنفسه وادَّعَى أنه لأبى نواس لعظم قدره عندهم ، فصدقوه ، ثم قال لهم : إنها لى ! ولو كانت شخصية الأندلسى واضحة فى شعر أهلها لصعب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر شرقى ، غاية ما عندهم من فروق أن الطبيعة الأندلسية الجميلة مكنتهم أن يقولوا كثيرًا فىشعر الطبيعة ، وهذا لم يكن معدومًا فى المشرق ، فإن الصنوبرى مثلاً - وهو الشاعر الحلبى - خلف لنا ديوانًا كله تقريبًا فى ذلك» .

ويردد الدكتور مثل هذا القول ( فى ص ١٣٠ وفى ص ٢٠٢ ) حتى إذا بلغ نهاية الشوط ختم بحثه عن الأدب الأندلسى بقوله ( ص ٢٣٠ ) :

«ولئن دمغ الأدب الجاهلى الأدبَ المشرقى ، فالأدب المشرقى دمغ الأدب الأندلسى وكان الظن أن يؤثر الأدب الأسبانى والفرنسى أثرًا غير تأثير الأدب الفارسى واليونانى فى المشرق ، ولكن حدث أن تأثر الأندلسيون بالمشرق أكثر من تأثرهم بالأسبانيين ، لوحدة اللغة ووحدة الدين .. والخلاصة أن الأندلسيين فى أدبهم وسعوا الإنتاج أكثر مما نوعوه ، فبدل أن ينتجوا باء بجانب الألف - وهو الأدب المشرقى - أنتجوا ألفًا أخرى تتشابه مع الأولى فى الموضوع والوزن والقافية والسجع ونحو ذلك ، وكأنهم كانوا يحسون مركب النقص بالنسبة لأدباء الشرق ، فكملوه بمجاراتهم بدعوى التفوق عليهم ، ولكنهم لم يتفوقوا ، والظاهر أن تيار المشرق كان قويًّا حتى استحوذ على أدب المغرب ، ولم يسمح له بالخروج عنه ، نذكر هذا بعد أن قرأنا كثيرًا من آثار الأندلسيين ، وقد دخلنا فى بحث الموضوع ونحن نعتقد أنَّا قادمون على شىء جديد مبتكر، فإذا نحن أمام ثروة كبيرة مقلدة».

هذا بعض ما ذكره الدكتور أحمد أمين ، وظاهر من حديثه أنه كان يأمل أن يؤثر الأدب الفرنسى ، والأدب الأسبانى فى إنتاج الأندلس - على نحو ما أثر الأدب الفارسى وتراث اليونان فى الأدب العباسى - وما نظن ذلك ممكنًا على وجه من الوجوه ، لأن الأستاذ يعلم علم اليقين أن الثقافة الفارسية فرضت نفسها على الدولة العباسية ، لأن

الوزراء العباسيين كانوا فى الأكثر الغالب من الفُرس ، وكان الوزير يقوم مقام الخليفة فى كل الشئون تقريبًا ، فجميع أمور الحرب والمال والتوقيع بيده ، وكان من شروطه الرئيسية أن يكون مفكرًا كاتبًا عالمًا ، ولكل وزير كاتب مساعد يماثله ثقافة وعلمًا وفكرًا ، بل كان لولاة الأقاليم كتاب من هذا الطراز المثقف الممتاز ، فحماد عَجْرَد ، وابن المقفع ، وعمرو ابن مسعدة ، وعبد الله بن سوار وأضرابهم ، أدباء يحذون حذو الوزراء فى الكتابة والمظهر ، فساعدوا على نشر الثقافة الفارسية ، وفيهم من ترجم بنفسه طائفة من آثارها الممتازة ، بل إنهم لم يقتصروا على الثقافة الفارسية فتعدوها إلى الثقافة الهندية ، فاستفاد الأدب العربى من أدب الهند بلاغة وفنًا ، ودخل من الألفاظ والقصص والحِكَم الهندية ما أفاض فى توضيحه مؤلف الجزء الأول من ضُحَى الإسلام ، هذا بالإضافة إلى الثقافة اليونانية ومدارسها المختلفة فى حران ، وجنديسابور ، والإسكندرية ، مما لقح الفكر العباسى بلقاح دسم مكين .. أما ثقافة اللاتينية بالأندلس على عهد الفتح الإسلامى فلم تكن شيئًا يجذب الانتباه حتى تستطيع التأثير فى الأدب العربى هناك ، كما لم تهيئ لها الظروف من يستطيعون إبرازها من الوزراء والوجهاء على نحو ما قام به أنصار الثقافة الفارسية فى بغداد .. بل إننا نجزم أنها كانت من الضحالة بحيث لم يجد فيها أعداء الإسلام أنفسهم ما يحاولون به أن يقاوموا الفكر الإسلامى فى مده المتلاطم الجياش ، واستمع إلى هذه الشكوى المريرة التى أطلقها القسيس «الفرو» القرطبى حين قال متحسرًا[1] :

«إن إخوانى فى الدين يجدون لذة كبرى فى قراءة شعر العرب وحكاياتهم ، ويُقبلون على دراسة مذاهب أهل الدين والفلسفة المسلمين ، لا ليردوا عليها وينقضوها ، وإنما لكى يكتسبوا من ذلك أسلوبًا عربيًّا صحيحًا ، وأين تجد الآن واحدًا من غير رجال الدين يقرأ الشروح اللاتينية التى كتبت على الأناجيل المقدسة ، ومن سوى رجال الدين يعكف على دراسة كتابات الحواريين ، وآثار الأنبياء والرسل . ياللحسرة !! إن الموهوبين من شبان النصارى لا يعرفون اليوم إلا لغة العرب وآدابها ، ويؤمنون بها ، ويقبلون عليها فى نهم ، وهم ينفقون أموالاً طائلة فى جمع كتبها ، ويفخرون فى كل مكان بأن هذه الآداب

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ترجمة حسين مؤنس ص ٤٨٥ .

جديرة بالإعجاب ، فإذا حدثتهم عن كتب النصرانية أجابوك فى ازدراء بأنها غير جديرة بأن يصرفوا إليها انتباههم ! ياللألم ، لقد أنسى النصارى حتى لغتهم ، فلا تكاد تجد فى الألف منهم واحدًا يستطيع أن يكتب إلى صاحبه كتابًا سليمًا من الخطأ ، فأما عن الكتابة فى لغة العرب فإنك واجد منهم عددًا عظيمًا يجيدونها فى أسلوب منمق ، بل هم ينظمون من الشعر العربى ما يفوق شعر العرب أنفسهم فنًا وجمالاً !» .

هذه الشكوى الصارخة من القسيس اللهيف تنبئ أن اللاتينية لم تكن تحوى شيئًا يجذب انتباه المسيحيين من أبناء البلاد ! فكيف يكون بها إذ ذاك ما يجذب انتباه العرب الفاتحين ؟ وقد أفلح هذا القسيس المتعصب فى حَمْل كثير من أتباعه على الاستشهاد الانتحارى عن طريق السب فى نبى الإسلام ! ولكنه لم يفلح فى صرف أحد منهم عن لغة الإسلام وتراثها الجميل .. ألا يكون ذلك دليلاً حيًّا على خواء اللاتينية الأسبانية ؟ وأنها لا تستطيع أن تقدم للعرب شيئًا ذا بال كما كان يتوقع الدكتور أحمد أمين ؟ .

على أننا نسأل فنقول : ماذا كان يريد نعاة التقليد أن يقوم به أدباء الأندلس من التجديد ؟ أكانوا يريدون إنتاجًا طافرًا لا يتفق مع إنتاج المشرق فى شىء ! إن طبائع الأشياء تنكر ذلك ، فكل تجديد يحمل فى طياته خطوطَ القديم ويحتذيه ، وما هو غير ثمرة سقطت من دوحة عريقة تضرب أصولها فى أعماق القديم ، والابتكار الأدبى لن يكون انفصالاً تامًّا عن الواقع الملموس ، وإلا استنكره المتأدبون ، وثارت عليه الثوائر ، فلا يجد متنفسه الطبيعى ، ويلحقه الاختناق السريع .. أما إذا أرادوا التجديد الْمُتَّئِد فقد ظهر على نحو ما فيما سنفيض فيه ببعض القول بهذه الصفحات عن قريب ، وإن كنا نرى أن عوامل قوية قد حالت دون التوسع الابتكارى وهى فى مجموعها ترجع إلى أصول نفسية تحدد للأدب مجراه الذى اختطه دون أن يكون له قدرة على الانفلات البعيد .

فالعربى حين قَدِمَ إلى الأندلس قَدِمَ بذكريات أدبية ، ولغة شاعرية ، وميول عاطفية اختلطت بدمائه ، وجرت فى عروقه ، فهى تتخايل لعينيه فى روحاته وغدواته ، وتسرى إليه طيوفها الحالمة فى هجعاته ، ولن يستطيع فكاكًا من أَسْرِهَا الخالب حتى ولو حاوله بشتى المجاهدات ، وهو ما يعبر عنه فى علم النفس بالذاكرة العاطفية التى تجر للمرء خيوطًا ماضية ، فيتمثلها أَنَّى ذهب وجاء .. فالعربى الوافد مع الفتح الأول بدوى

الديباجة، تقليدى المذهب ، لأنه - وإن كان فى عالم جديد - لا يزال يحن إلى الشيح والقيصوم ، ويتذكر مرابع أحبابه فى صحراء المشرق وحواضره ! فيهتف بلسانه بما يجيش به اضطرارًا دون أن ينزع إلى ابتكار مقصود . هذا هو العربى المسلم الوافد ، ولن يبعد عنه كثيرًا أحفاده وأبناؤه ممن نَشَئُوا بالأندلس ، وتفتحت عيونهم على رياضها الساحرة ، لأنهم من ناحية أُولى قد ورثوا ذكريات آبائهم ، وانحدروا من أصلاب تذكرهم بعالم آخر يزدهر فيه الإفصاح البدوى ، وتنفحه أنسام نَجْد ، والعقيق ، وسَلْع ، وهم من ناحية ثانية يَقْرَءُونَ أدب المشرق فيرون به صدى أشواقهم ، وينزعون إليه دون أن تقدر لهم رؤيته ، وأقل شىء أن يحتذوه فى أشعارهم ، فيكون مثالهم الأرفع ، وأنموذجهم الراقى، ومن ذا الذى لا يقرأ تراث بنى أمية وبنى العباس من أدباء الأندلس المسلمين دون أن تجيش به نوازع تدفعه حينًا إلى الرحلة للشرق ، فيضرب فى أبعاد الأرض ليرى بعينيه ملاعب أحلامه ومسارح عواطفه ، وتجذبه أحيانًا إلى الاكتفاء بحفظ روائع الشرق وتقليدها على أتم نطاق؟! لقد يستغرب القارئ أن أذكر له أن أدباء الأندلس ممّن نشئوا بها يحنون إلى الصحراء العربية دون أن يروها ، والحقيقة أننى فى حاجة إلى أن أقوى رأيى فى ذلك بما بسطه الأستاذ الدكتور إبراهيم سلامة فى كتابه تيارات أدبية[1] ، إذ حلّل هذا الموقف تحليلاً واضحًا حين قال : «وإنا لنرى أن الاستنتاج الذى استخلصه بعض أدبائنا المعاصرين من دراساتهم للطبيعة والشعر ليس بذى خطر ، فقد فصلوا بين طبيعتين للعربى فى الأندلس فى أدبين عربيين لكل منهما طبيعته ، دخل أحدهما الأندلس رجلاً مكونَ الفكرةِ ، مكونَ اللغة ، قد عرف هواه فى المشرق وأغلق قلبه عليه ، فما عاد يفتح لهوى جديد ، ونشأ الآخر فى الأندلس ، فكان مطلع حياته ، ومناط تمائمه ، وملعب هواه ، أما الأول فبعد أن دخل الأندلس كان يتلفت وراءه ، شأن كل عربى مهاجر ، يطوف ما يطوف ، وَيَشْأَمُ ما يشأم[2] ، ويعرق ما يعرق[3] وهو عالق بنجد ، يتنغم به فى حطّه وترحاله :

---

(١) تيارات أدبية للدكتور إبراهيم سلامة ص ٢٥٤ ط أولى .

(٢) أى : ويذهب إلى الشام .

(٣) أى : ويرحل إلى العراق .

فإن كنت قد فارقت نجدًا وأهله  فما عهد نجدٍ عندنا بذميم

لذلك كان العربى الأول فى زعمهم بدوى الديباجة ، تقليدى المذهب ، يصف الناقة والجمل ، ويستام لها الشيح والقيصوم فى بلادٍ لا تنبت إلا النيلوفر ، ويرى الرياض أمامه فلا تغريه ، ولا يتسلى بها عن المراعى التى تركها خلفه ، وأما الثانى فقد وُلد فى قرطبة ومات فى أشبيلية ، كابن زيدون مثلاً ، فمثله يصف ما تحت قدميه ولا يبالى بالأدب التقليدى ، بل يبدع ما شاء له الإبداع ، أو ما شاءت له طبيعة الأندلس .. إن استنتاجًا كهذا ينقصه الاستيعاب والتعميم ، فكثير من الشعراء الأوائل فى الهجرة أُغرموا بالأندلس ، وكثير من الشعراء النابتين فى الأندلس قد رجعوا بهواهم إلى بلاد آبائهم وأجدادهم ، فابن زيدون قبل أن يكون أندلسيًّا مخزومى الأصل والنّجَار ، وقد قلنا إن اللغة ليست مادة ، ولكنها مادة مصورة فما دامت لغتهم عربية فصورها وأساليبها متحملة بصورة البادية ، والعربى فوق ذلك مرتبط بوطنه ، عزيز عليه أن ينساه مهما بعدت به النية وشط المزار» .

هذا كلام الدكتور إبراهيم سلامة ، وهو يحل لنا مشكلات كثيرة فى دعوى التقليد والتجديد ، وقوله البديع : «إن اللغة مادة مصورة ، فما دامت لغتهم عربية فصورها وأساليبها متحملة بصور البادية» . هذا القول ينقد كثيرًا من الشعراء مما حكم به عليهم بعض الناقدين من عُقْم وإمْحَال[1] . ولنا أن نضرب المثل على صحته بشاعر معاصر – هو الأستاذ محمد عبد المطلب – فقد عُرف بين الشعراء بالشاعر البدوى ، وكان لشعره – ولا يزال – تأثيره الحىّ على قارئه ، لأنه – باعتباره عربيًّا من قبيلة جهينة التى تنزل بمحافظة سوهاج فى الصعيد الأعلى من بلاد النيل – قد كان يحس إحساسًا صادقًا بمرابع أجداده فى نجد ، ومنازل قومه الأبعدين فى الجزيرة العربية ، إذ كانت مهبط الإسلام ومشرق النور ، ثم مبعث الحضارة العربية إلى العالم فى شتى القارات .. هذا الإحساس المعتز ، جعله يستروح البهجة والسعادة حين يتغنى بالصحراء .. وقد كان تأثره صادقًا ، لأنه فى

(١) أى : جّدْب .

بعض مواقف إنشاده كان ينشج بالبكاء ! وأكثر الأدباء يحكمون عليه بالتقليد ، ويقرنونه فى ذلك ببعض من يسلكون نهجه عن طريق الذاكرة العلمية فقط ، ويابعد ما بين الشاعرين ، فأحدهما نظام لاقِطٌ حافظ ، وعبد المطلب يصدر عن إحساس ووجدان .

والذين يشكُّون لحظة فى أن اللغة ليست مادة فقط ، ولكنها مادة مصورة ، تأتى أخيلتها ومعانيها متصلة كثيرًا بحروفها وكلماتها ، نقدم بين يديهم - تطبيقًا على ذلك - شاعرًا ينظم بلغتين فى موضوع واحد ، فمع اتحاد العاطفة وتوافق الانفعال ، واحتشاد الخواطر لديه ، حين ينظم بإحدى اللغتين ، فإننا نرى جو الأدب الذين يقيم فى رحابه بناء قصيدته مسيطرًا إلى حد ما على معانيه ، فتأتى قصيدته قريبة من روح الأدب الذى تصدر عنه خيالاً وفكرة وتعبيرًا . ولديك شاعر عظيم كسعدى الشيرازى ، تَفَطَّر قلبه[1] جذاذًا لمحنة بغداد على يد التتار ، وهاله أن تصبح آثار الإسلام ومصونات الحضارة نهبًا هباءً بين أيدى الهمج والأوشاب ، فنظم فى هذه الكائنة المشئومة - كما يقول عنها المؤرخون - قصيدتين إحداهما عربية ، والأخرى فارسية ، يقرؤهما القارئ فيرى روح الأدب العربى بمادته وأخيلته فى القصيدة العربية ، كما يلمس نزوحًا شاسعًا عن جو القصيدة العربية فى أُختها الفارسية ، فإذا كان يقول فى الأولى :

فأين بنو العباس مفتخر الورَى ... ذوو الخُلق المرضى والغرر الزُّهْرِ
غدًا سمرًا بين الأنام حديثهم ... وذا سمر يدمى المسامع كالسمر
هنيئًا لهم كأس المنية مترعًا ... وما فيه عند الله من أعظم الأجر
فلا تحسبنَّ الله مُخْلِفَ وَعْدِه ... فإن لهم دار الكرامة والبِشْرِ
إلامَ تَصاريف الزمان وجوره ... يكلفنا ما لا نطيق من الأمر

فإنه يقول فى الثانية ما ترجمته - عن بنى العباس أنفسهم - :

---

(١) تَصَدَّعَ وتقطع .

«أُريقت دماء أولاد العباس كذلك على هذه التربة ، حيث كان السلاطين يضعون الجبين ، اواه أن تقع ذبابة على دم هؤلاء الأطهار ، فليصر إذن فى فمها العسل علقمًا حتى القيامة ، على أنه لا يليق النواح على دم الشهداء ، ذلك أن أقل سعادة لهم هو الخلد فى عِلِّيين ، على الأرض كان تراب أقدامهم كحلَ العيون ، وفى يوم المحشر سيكون دمهم لونَ الورد صبغة خدود الحور العين» .

والقارئ يدرك بيسر روح الأدب العربى فى الأولى، وجو الأدب الفارسى فى الثانية، وذلك ما يؤكد سيطرة الثروة الأدبية التى يحفظها الشاعر وينسج على منوالها ، وليس معنى هذا أننا ننكر قدرة الشاعر المحلِّق على الخلق والابتكار ، ولكننا نقول إنه يصل إلى ابتكاره فى طريق التراث المحفوظ ، ويضع ماءه فى إنائه ، فلا محيصَ له عن التزيِّى بطابعه العريق .

أريد أن نحكم بحذر على الشعراء بعامة «والأندلسيين بخاصة» حين نرميهم بالتقليد لوجود بعض التشابه بين أحاسيسهم وأحاسيس المتقدمين ، فمما يزيد هذا التشابه اقترابًا اتحاد اللغة التى يعبر بها المتقدم واللاحق معًا ، فيظن القارئ أن القريب يحذو حذو البعيد .. وإذا كان ابن زيدون – فى رأيى الخاص – أرق شعراء الأندلس وأصدقهم إذا قِيسَ بهم جميعًا ، فمع ذلك نظر إليه بعض النقاد نظرة ساذجة حين وصمه بالتقليد ، مع أن حياته الزاخرة بالحب والولع والسجن كانت مددًا لانبعاث آهاته ، وميدانًا للإبداع الشعرى فى قصائده ، فهو فى أكثر ما نظمه شاعر مبدع ، يصدر عن إحساس مشبوب ، ولكن الأستاذ الدكتور شوقى ضيف يغفل ما قررناه هنا عن الذاكرة العاطفية والنزوع الوجدانى، فيقول فى كتابه «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى»[1] :

«والحق أن الإنسان لا يتابع ابن زيدون فى شعره حتى يحس بأن هذا الشعر يكاد يسقط من ديوانه فيرتد إلى أمكنته فى شعر العباسيين ، ولعل هذا ما جعل صاحب الذخيرة يقول : «وأبو الوليد بن زيدون على كثير إحسانه كثير الاهتدام فى النثر والنظام» ، فهو حقًّا كثير الاهتدام لأشعار العباسيين ، يغير عليها فيسلبها من دواوينها ، ويسلكها فى شعره على هذا النحو الذى رأيناه . وما أشك فى أن صوت ابن زيدون اتضح لنا الآن ،

(١) ص ٢٤٢ ط ٤ .

فهو – بالرغم مما يبدو عليه من صفاء وعذوبة – صوت مصنوع ، إذ هو صدى لصوت العباسيين ، لا يطَّرِد على نسق واحد ، لأن الشاعر لا يختار له نسقًا معينًا يعيش فيه ، بل يعيش فى كل نسق يقرؤه ، فتارة يعيش فى جو البحترى ، وأخرى فى جو أبى تمام ، أو المتنبى ، أو أبى العلاء ، من غير تفريق بين هؤلاء الشعراء ومعرفة أن كُلاًّ منهم يمثل مذهبًا خاصًّا له ، وهذا هو معنى ما نقوله من أن الشاعر الأندلسى لا يزال فى شعره يخلط بين جميع المناهج والمذاهب العباسية» .

وقد توسع الدكتور شوقى ضيف فى تطبيق رأيه فرأى أن قصيدة ابن زيدون الرائعة[1] :

أضحى التنائى بديلاً من تدانينا     ونـاب عن طِيبِ لقيانا تجافينا

محاكاة تقليدية لقصيدة البحترى :

يكاد عاذلنا فى الحب يغرينا     فما لجاجك فى عذل المحبينا

وهو رأى يتجاهل ظروف القصيدة وتعبيرها الحار عن مأساة الشاعر حين أخفق فى غرامة بِوَلاَّدة ، وهى من الذيوع بمنزلة لا تخفى عن أقل تلاميذ الدكتور شوقى ، ولا أدرى كيف نحكم على شاعر باحتذاء شاعر آخر لأنهما اتحدا فى الوزن والقافية وبعض المعانى الشائعة ! لو جاز لنا أن نطمئن إلى هذا القياس الطريف ما عددنا قصيدة واحدة مبتكرة فى الشعر العربى منذ عصر بنى العباس ، والسبب واضح إذ إن من الميسور أن تجد لكل قصيدة لاحقة سلفًا يتحد معها فى الوزن والقافية ، لقد كان الناس منذ العصر الجاهلى يرددون قول عنترة : «هل غادر الشعراء من مُتَرَدَّمِ» ، وما زال الشعر يسح ويهضب منذ ذلك الأمد حتى جاشت غواريه ، واصطَخبت أواذيه ، وأصبحنا لو نأخذ بمنطق الدكتور نحرم على كل شاعر أن يقول قصيدة ما ، فلعلها تتفق مع أُمٍّ لها سابقة ، ومن الإنصاف للدكتور شوقى أن نقول : إنه نظر إلى ما فى نونية ابن زيدون من بعض المعانى المطروقة مما لا حيلة له فيه ، إذا صادف تعبيرًا صادقًا عن خوالجه ، ولكن ذلك لا يكفى لتجريده من الأصالة وإحالته على شاعر متقدم ، وإن يكن أبا عبيدة الوليد ، ولقد كان الأستاذ الكبير

---

(١) الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ط ٢ ص ٤٣٥ .

أحمد ضيف أصدق حكمًا وأكثر نفاذًا حين حكم على النونية من خلال تجربتها الصادقة، ورأى فى معانيها الشائعة وفى غيرها مما شاع فى غزل ابن زيدون ما يشير إلى صدقه لا إلى تلفيقه ، فهو يقول فى كتابه عن بلاغة العرب فى الأندلس :

«إذا كان لابن زيدون ميزة فى شعره الغزلى فليس فى ابتكار المعانى التى لم يسبق إليها ، وإنما هى فى طريقة تصويرها بعبارات تملك النفوس وتستولى على القلوب ، وكأن الإنسان لم يقرأ مثلها ، ولم يسمع بما يشبهها ، لجودة الافتتان فى التعبير والأسلوب ، ولقد يسمع الإنسان أنينه فى شعره ، ويرى أنّته الحزينة من خلال كلامه ، وكأنه يرى تلك الحيرة وذلك القلق النفسى اللذين يملآن نفوس العشاق ، ويمنعان عنهم راحة الحياة ولذاتها» .

وقد نكون مسرفين بعض الشىء فى الاستشهاد بآراء الباحثين ، وعذرنا الواضح أن قضية التقليد غامضة مبهمة ، لأن التقليد يختلط بالتجديد اختلاطًا لا يستبنه غير المتبصرين، وهؤلاء لا يلمحون الجديد إلا بين خيوط متشابكة تحتشد وتزدحم حتى تحتاج إلى مجهر دقيق ، ونحن فى هذا النطاق نسترشد بأدب أمريكا المعاصر ، فقبل القرن العشرين لم يكن من المستطاع أن تميزه تميزًا واضحًا من الأدب السكسونى ، إذ إن اتحاد اللغة بين بريطانيا وأمريكا جعل الفوارق بين الأدبين متضائلة إنْ لم تكن متوارية ، بل إننا الآن لا نفرق بين أدب أمريكى أو أدب إنجليزى إلا بسمات لا ترجع إلى الأسلوب أكثر مما ترجع إلى الغرض والموضوع ، فليس الأدب الأندلسى بدعًا فى اتفاقه ، ولكن الاتفاق شىء والمحاكاة التقليدية شىء آخر بدون نزاع .

ولاَبُدَّ لنا فى هذا النطاق من كلمة عن أدبنا العربى المهاجر بالأمريكتين ، فإن به اختلافًا واضحًا عن الأدب العربى بالدول العربية ، وهذا ما كان يرجوه الدكتور أحمد أمين والدكتور شوقى ضيف وأضرابهما ممن وصموا الأدب الأندلسى بالتقليد والقياس مع الفارق – كما يقولون – لأن أدباء العرب قد هاجروا إلى أمة حيّة ، ذات ثقافة وبيان ، لها فى الأدب قواعد وشروح ، فاتصلوا بالتجديد الغربى اتصالاً مباشرًا جعلهم يتأثرون به ، ويبدعون قصائدهم المهجرية على نحو جديد .. وإذا كان هناك فروق واضحة بين حركة

التجديد فى الأدب العربى بالمشرق وموجة التجديد فى الشعر المهجرى بأمريكا ، فإن هناك اتفاقًا بين الأصول الحية للتجديد الأدبى لدى الفريقين ، فكلاهما يهتم بالتجربة الذاتية ، ووحدة القصيدة ، والبعد بها عن التقريرية الجامدة إلى التأثيرية الموحية ، مما نضحت به الثقافة الغربية على الحركتين التجديديتين فى الشرق والمهجر ، مع أن زعماء التجديد فيهما لم يتصلوا اتصالاً مباشرًا يوجب توحيد الرأى ، وتقرير الاتجاه . هذا التأثير الواضح فى الأدب المهجرى لم نجد مثيله فى أدب الأندلس ، لأن أسبانيا اللاتينية لم تكن ذات أدب يسيطر ويؤثر ، فأين يجد الأدب العربى رافده الدافق وما حوله سراب لا يسمح بارتواء ؟ إنه مضطر إلى الاستعانة بأدب المشرق استعانة لا تمحق كيانه الأدبى كما يتصور بعض الغلاة ، ولكنها تدفعه إلى المسير .

لقد طال استماعنا إلى من رموا أدب الأندلس بالتقليد والترديد ، وفى الشقة المقابلة أناس يصفقون له مهللين ، ويلمحون فى روائعه بوارق الجدة والابتكار ، فيقفون عندها مطيلين ، والأستاذ الكبير على الجارم فى طليعة هؤلاء ، فقد كتب عن أعلام الأدب الأندلسى – أمثال ابن زيدون ، وابن عياد ، وابن عمار – سِيَرًا تحليلية تنبض بالحركة ، وتتدفق بالحياة ، ثم ترجم قصة العرب فى أسبانيا عن استانلى لين بول ، سعيدًا أن رأى أمجاد آبائه تُسَطَّربقلم أوربى منصف ، فنقلها إلى ذويه ببراعه البليغ .. ثم تسمّع إلى الهجوم على أدب الأندلس يأخذ أذنيه من منابر عالية تحفها الثقة التامة ، فلم يصبر أن صاح فى وجوه هؤلاء الناقدين .. ومضى – على النقيض من الدكتور أحمد أمين – يقول فىمقاله عن الشعر الأندلسى بمجلة الكتاب[1] :

«أنا واثق من أن هناك فروقًا بين الشعرين : الأندلسى والمشرقى ، وإنَّا نحس هذه الفروق حقًّا ، وَأَنا مدرك من غير حاجة إلى تعديل أو فلسفة أَنِّى – بعد قراءاتى الطويلة للشعرين الأندلسى والمشرقى – أستطيع أن ألمح الشعر الأندلسى ، وأن أتبين خصائصه غامضة من وراء الضباب ، وأعتقد أن الأديب الذى لا يستطيع أن يميز – على وجه من الوجوه بعد طول المعاناة والمزاولة – خصائص الشعر وسماته فى عصوره المختلفة ، أديب

(١) مجلة الكتاب : دار المعارف : ديسمبر سنة ١٩٤٧ .

خائب ، ضعيف الملكة ، له دماغ لا تثبت عليه الصور .. إن الشعر كالماء يأخذ لون إنائه ، وهو مثل كل مخلوق حى نابض يتأثر بالبيئة التى هو فيها ، وإذا كان هناك فرق بين شاعر وشاعر ، فَأَوْلَى أن يكون هذا الفرق أبين وأظهر بين شعر المواطن والمواطن .. إن الشعر الجاهلى غير الشعر الإسلامى ، وهذا لا يماثل الشعر العباسى فى خصائصه ، وشعر مصر غير شعر الشام ، والشعر المصرى فى عهد الفاطميين غيره أيام الأيوبيين والمماليك» .

وهذا دفاع مخلص ولكنه إلى الخطابة أقرب منه إلى البحث المنهجى ، ولن ننتظر من مقال فى مجلة سعةً فى التحليل ، واستطرادًا فى الاستشهاد ، ونفاذًا إلى اللباب ، أما الذى تكفل بذلك ، أو حاول أن يقوم به جهد المستطاع ، فهو الأستاذ الدكتور أحمد هيكل فى كتابه عن الأدب الأندلسى ، والدكتور هيكل يحمل الدكتوراه من أسبانيا فى هذا الأدب ، وقام بتدريسه فى كلية دار العلوم أعوامًا متوالية ، كان من بعض آثارها كتابه هذا عن «الأدب الأندلسى من الفتح الإسلامى إلى سقوط الخلافة» ، وقد أراد أن يحدد مواضع التجديد فى كل حقبة ، وأن يضع كبار الشعراء الأندلسيين فى أماكنهم التى يراها من الابتكار والتقليد ، فاجتهد كثيرًا فيما يريد .. ويخيل إلينا أن هيامه بالأدب الأندلسى قد دفع به إلى التطرف والتماس الابتكار فى كل موضع ، حتى فيما يتعذر معه الابتكار باتفاق، ودليلنا – على سبيل المثال – أنه أراد أن يعثر على الطريف الجديد فى الفترة الزمنية التى سبقت عهد الخلافة ، وهى المعروفة بعصر الولاة ، مع أن هذه الحقبة كانت مسرحًا لهجرة الشعراء من المشرق ، وأكثر من قال الشعر إذ ذاك – كعبد الرحمن الداخل – الذى اشتهر بشعره لا يمثّل الأندلس فى شىء ، لأنه حين قال أبياته الشهيرة التى اتخذها الدكتور مثالاً للتجديد :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة ... تناءت بأرض الغرب عن بلد النخلِ
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى ... وطول التنائى عن بَنِىَّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة ... فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى
سقتك غوادى المزْنِ فى المنتأى الذى ... يسح ويستمرى السماكين بالوَبْلِ

أقول حين قال ذلك كان وافدًا من المشرق شاعرًا يجرى القريض فى دمائه ، ويتدفق مع الدم فى شرايينه ، ولم تنفحه الأرض الجديدة بثقافة خاصة تدعوه إلى التجديد الذى يريده الدكتور .. وأين هذه الثقافة ؟ بل لو وجدت إذْ ذاك ثقافة على سبيل الفرض ما تَسَنَّى له أن يرد حياضها ، وهو السياسى الداهية الذى ينتقل كل يوم من معركة دموية إلى مؤامرة سياسية ، وقد رأى الدكتور الباحث فى هذه الأبيات ما سماه بالتركيز العاطفى[1] ، وهو فى رأيه أمر جديد يستحدثه الداخل فى دنيا الشعر .. ومع التسليم جدلاً فقط بهذا التركيز العاطفى ، فهو مشرقىّ صافى الدم ، حر النسب ، غير هجين .. والدكتور هيكل يرى سمات هذا التركيز الجديد فى أن «الداخل» لم يصف النخلة فى طولها ولا فى لونها ولا فى ثمرها ، ولم يتخيلها ماردًا ذا شعر طويل ، ولا شيخًا ذا قوام هزيل ، وإنما ترك ذلك كله ليصف النخلة بأوصاف عاطفية ، ويصورها بصورة نفسية ، وقد جعل منها إنسانًا حيًّا ، يغترب ، وينأى عن الوطن ، ويحنّ إلى الأهل ، وقد فرض بينه وبينها مشاركة وجدانية ، وعلاقة نفسية جعلته يخاطبها فى حنوّ ، ويناجيها فى عطف.

وتحليل الدكتور للأبيات رائع ، بديع حقًّا ، ينمّ عن إحساس صافٍ ، وذوق رائق ، ولكنه - بعد ذلك - شىء والتجديد شىء آخر ، إذ إن الشعر الأموى يعرف هذا التركيز العاطفى كما سماه ، ويعرض لنا قبل «الداخل» صورًا منه أعمق وأبعد من صورة النخلة ، فلديك مثلاً عورة بن حزام ، وهو شاعر مخضرم أتى قبل «الداخل» بأمد بعيد ، يقول عن ناقته :

هوى ناقتى خلفى وقدامى الهوى ... وإنى وإيَّاهَا لمختلفانِ

هواى أمامى ليس خلفى معرج ... وشوق قَلُوصِى فى الغد ويمان

متى تجمعى شوقى وشوقك تظلعى ... ومالك بالعبء الثقيل يدان

---

(١) الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة ، للدكتور أحمد هيكل ص ٩٦ ط أولى مكتبة الشباب .

وهى أبيات ذائعة مشتهرة ، وذويعها المشتهر يغنى عن إيضاح ما بها من التركيز العاطفى كما عناه الدكتور ، وقريب منها قول شاعر الحماسة متحدثًا عن ناقته :

أراد الله نقيك فى السلامى على من بالحنين تعولينا
فإنى مثل ما تجدين وجدى ولكنى أُسِرُّ وتُعْلِنِينَا
وبى مِثْلُ الذى بكِ غير أنى أجلّ عن العقال وتعقلينا !

فقد ركب الشاعر ناقته واستمع إليها تئن وتحن ، وكان به وجد يشكو عقابيله فهو الآخر أنَّان حنَّان ، فتصور لدى الناقة ما به من شجن عاطفى ، ورآها تقاسمه لوعة الهوى وتباريح الصبابة ، فصاح بها :

فإنى مثل ما تجدين وجدى ولكنى أسرّ وتعلنينا

ثم استطرد فى الموازنة استطرادًا بديعًا ، فذكر أن هناك فرقًا واضحًا بين الشاعر وناقته ، فهى معقولة تأخذها القيود ، فلا تستطيع أن تهيم على وجهها كما تشاء فترد منازل الأحبة ، وملاعب الذكريات ، أما هو فيجل عن العقال ، وشتان بين حنين لمطلق السراح وحنين لمغلول الجناح !

ألا يجد الدكتور ما عناه بالتركيز العاطفى قد تقدم «الداخل» بأحقاب ؟ على أنى أفهم أن يطلق الدكتور على هذا اللون من الأدب تجسيمًا أو تشخيصًا ، أما أن يصفه بالتركيز العاطفى ، فذلك ما فاتنى سره ، ولا أدرى مدى انطباقه على ما يريد بالتحديد .. ومن ضروب التجديد التى ارتآها المؤلف فى هذه الحقبة التقليدية ما سماه بالتجديد الموضوعى ، مستشهدًا بقصيدة لأبى المخشى يشكو عَماه ، والقصيدة شعور متألم لزوج ضرير ، يرى أُمَّ بناته ترمقه فى أسفٍ حين تراه يتحسس موقع أقدامه ويتخشع لقائد يهديه السبيل ! ولكنها مع ذلك لا تحمل من الجديد ما يريد الدكتور .

فأقل ما يقال عن العمى : إنه مرض حسّى يستشعره الضريره بمرارة صارخة ! وأصعب منه فى مضمار الوصف الشعرى مرض من الأمراض المعنوية ، كالحسد ، أو الغيرة ، أو الرياء ، وقد وصفها شعراء الجاهلية وصدر الإسلام أوصافًا تحمل صدق

التجربة ، وتستعين بالتعبير الموحى ، مما يراه الدكتور من دلائل التجديد لدى الشاعر الأعمى ، وأخشى أن أسوق أمثلة كثيرة لما أريد فأطيل فى غير مطال .

لقد تطرفَ فريقَا التقليد والتجديد فى قضية الأدب الأندلسى تطرفًا متوقعًا غير مستغرب ، وقد اتفقوا جميعًا مع هذا الاختلاف السافر - على أنماط من التجديد وجدت بارزة فى هذا الأدب ، ولعلها تنحصر فى الموشحات ، والأزجال ، والملاحم ، والإبداع فى وصف الطبيعة ، ورثاء الممالك الزائلة ، ولابد لنا أن نقف فيما يلى من الصفحات وقفات نافذة لدى كل نوع من هذه الأنواع ، بل إننا سنضيف إليها ما رأيناه من دلائل التجديد الأندلسى فى النثر الأدبى لا فى الشعر وحده كما يريد بعض الباحثين أن يقصر عليه مجال التجديد إن وجد .. والحق أن لدينا إبداعًا فائقًا فى الكتابة الأدبية لدى بعض المهرة من الأدباء ، وقد تغافل عنه الباحثون فى هذا المضمار ، وهو بحاجة ملحة إلى أضواء تشير إليه ، وتدل عليه ، وسبيلنا أن نوجد القول فى ذلك ، وحسبنا أن نحدد وأن نوجه تاركين لأرباب البحث المستوعب جانبًا من الميدان الفسيح .

لقد أغفلتُ الحديثَ عن سيطرة المشرق النفسية ، مع أصالتها فى باب يتحدث عن القديم والجديد لدى الأندلسيين ، ولكنى تعمدتُ ذلك لأفردها بالحديث فى موضوع لاحقٍ يراه القارئ عن كثب ، وهى بعد تحتاج إلى مزيد من التبسيط .

★★★